القِصَّة الرابعة

الطبيبُ المحرِّرُ لِلعبيدِ [1]

لقد كان «وِلْيَم وِلْبَرْفُورْس» [1] أَحَدَ عظَماءِ الإنجليز الذين نَادَوْا بِتحريرِ العبيدِ ، وأَخَذَ ينادى بتلكَ الفِكْرَةِ بِكلِّ جُرْأَةٍ وشَجَاعَة ، فى وقتٍ كان الشُّعور العامُّ السَائِد فى الممتلكاتِ البريطانيَّة أَنه ليس هُناك ما يَدعو إلى تحرير الرِّجال والنِّساءِ والأَطْفال من البَيْعِ والشِّراءِ واتخاذهم عبيدًا فى المُسْتَعْمَرات لسادتهم الأَوربيين بيضِ الوُجُوه . ولقد رَبحَتْ بريطانيا ثَروَةً كبيرةً من الاتجارِ بالعبيد فى القرن الثامنَ عشر ، تلك التجارة التى طالبَ «وِلْبَرفورُس» شعبَه بأَن يضَحِّىَ بها فى سبيل الإنسانية ، ويضَحِّىَ بها بمَحْضِ إرَادَته واخْتِيارِه . وكانت تلك التجارةُ منْتشِرَةً

(١) William Wilberforce

بإنجلترا حين بلَغَ «وِلْبَرْفُورْس» ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً من العمر أى سنة ١٧٧٢ . ومما دَعَا «ولبرفورس» إلى المُطالبة بتحرير العبيد اعتقادُهُ أن العبدَ إنسانٌ وليس بحيوان . إنسانٌ له روحه وعَقْلُه وحقوقُه ، إنسانٌ له الحقُّ فى الحرِّيَّة ولعَطفِ والشفَقَة والمساواةِ ، له الحقُّ فى أن يكونَ حرًّا كالرَّجلِ الإنجليزى نفْسِه ، فالعبْدُ فى نظرِه إنسانٌ له ما لِلإنسان من حقوق ، سواءٌ أكان رَجلاً أم امرأة أم طِفْلا ، مهما يكن لَونُه ، ومهما يكن بلده الذِى يَنْتَسِب إليه ؛ ومهما تكن جِنْسِيَّتُهُ التى يَتجَنَّسُ بها .

صوَّرَ «وِلْبَرفُورْس» الطريقةَ التى يعامَلُ بها العبيدُ بصورة بَشِعَةِ المنظر لعبد وضِعَ الغُلُّ فى عنقِه ، والسَلاسلُ فى يَديه ورجليه . أخذ يصوِّرُ تلك الصورةَ أمام بريطانيا منادِياً بجعل العبيد أحرارًا ، واستمَرَ ينادى بتحرير العبيد فى إنحلترا أكثَر من أربعين

سَنةً بغير انْقِطاع ، حتى بَدَأَتْ بريطانيا تَكْتَرِثُ لِندائه ، وكان يُنادى بهذا المَبدإِ عن عَقِيدة ؛ لأَنه كان يعتقِد أن الدِّيانةَ المسيحية التى تدينُ بها إنجلترا ضِد العبُودية والاسترقاق .

المعارَضة فى تحرير العبيد :

وحينما بَدَأَ « وِلْبَرفُورْس » حَرَكَتَه الْمبَارَكة فى لمناداة بتحرير العَبيد كان « وليم بِت[1] » الصغير رئيساً للوزراء بإنجلترا ، وكان رئيس الوزارة وكثيرٌ من الوزراء يعَضِّدون « ولبرفورس » فى حركته ، ولكن الشعبَ كان معَارِضاً للفِكْرَة ، وبخاصَّةٍ هؤلاء الماليون أصحابُ الممتلكاتِ العظيمةِ فى المستعمرَات البريطانية ، خَوفاً من أَن تَتَأَثَّرَ ثروتُهم وأَملاكُهم إذا مُنِحَ هؤلاء العبيدُ ما يستحِقونه من حرِّيَّة ، وخَوفاً من أَن تتأَثَّرَ تجارتُهم فى شِراءِ العبيد وبَيْعهم ، وأَخذوا يقولون : من

(١) William Pitt the Younger

الذى يقومُ بالعَمَل فى تلك الأَراضى وتلك المناجم إذا زالت العُبودية ؟ لهذا كان بعضُهم يَعتَقِدُ أَن العُبودِيةَ شَرٌّ لا بدَّ منه ، ورأى آخرون أَن هؤلاءِ العبيدَ وتلكَ الشعوبَ الملَوَّنَةَ لا يَستَحِقُّون أَن يفكِّرَ فيهم أَحد .

أَخذ « وِلْبَرْفُورْس » يَتَقَدَّم إلى مَجْلس العُموم بمشْروع تحرير العبيد مرةً بعد أُخرى ، ولكنه كان يُقابَل بالرَّفْضِ دائماً . لم يَتَسرَّب اليأْس إلى قلبِ ذلك الرَّجل ، وأَخذ يطَالب وينادى بتحرير العبيد حتى بدأَت إنجلترا حكومةً وشَعباً تنظر إليه نظرةً جديدة ، وحتى فاز فى النهاية بعد عشَرات السنين .

أَولُ الغيثِ قطرٌ :

لم يَنْتظِر ذلك الرَّجل العظيمُ أَن يَنْتَصِرَ مرةً واحدةً ؛ ولم يَنْتَظِر أَن تُلْغِيَ بريطانيه الاسترقاقَ والاستعبادَ مرةً واحدةً ، ومن الأَشياءِ الأُولى التى قام بها أَنه دعا جماعات من العظماءِ لزيارة سفينة من السُّفُن المحَمَّلَةِ

بالعبيد للتِّجارَة فيهم ؛ لَيرَوا كيف يعامَل هؤلاءِ العبيدُ ، وهم على ظهْرِ السَّفينةِ فى مكانٍ ضيِّقٍ لا يَتَّسِع لهم ، وكيف يجمَعون كما يَتجَمَّع القطِيعُ من الغنم ، وكيف يُعامَلون كما يعامَلُ الحيوان ، وكانت نتِيجَةُ تلك الزيارة أَن تأَثر الزائرون بهذا المنظر ، وبقسوة تلك المعاملة ، فقرَّر مجلس العموم تحديدَ عددِ العبيد الذى ينقل على ظهْر السَّفينة ، وترك الفراغ الكافى لهم كى لا يشْعروا بهذا الضِّيق ، وما هذه إلا خُطوةٌ صغيرةٌ نحو الأَمام من العَمَل العظيم الذى ينادى به « ولبرفورس » . تلك الخُطوة الصغيرة تُعَد بُشْرى النجاح لذلك الرَّجل العظيم ، وتدلُّ على أَن هذا بَدءُ الانتصار والفوز ، وعلى أَن من الممكن أَن تؤثرَ فى الرَّجل الأَبيضِ حتى يتألَّمَ للرجل الأَسودِ من بنى الإنسان .

استمرَّت المقاومةُ سنواتٍ بين « ولْبَرفورْس »

ومعارِضيه من التُّجار والمُلاَّك الأغنياء ، ولكن شجاعَتَه وَمُثابَرَته على النِّداء بمَبدَئه . وحياتَه النقيةَ الطاهرة ، كل هذه الصِّفاتِ تَركت بالتَّدريج أَثَرًا فى نَفْسِيَّة الشَّعبِ الإنجليزى الذى يُفَكِّرُ فى حَقِّ هؤلاء العَبيد فى الحُرِّيَّة . وفيما يُلاقونَه من ظُلم وَقسوةٍ فى المعاملة .

بَدَأَ ذلك الرَّجلُ العظيمُ حياته ونِداءَه وَلَدَيْهِ ثَرْوَةٌ كبيرةٌ خاصَّةٌ به وَرِثَها عن أَبيه ، ولكن تلك الثَّروَةَ كلَّها قد أَنْفَقَهَا فى سبيل تلك المساعى الجبَّارةِ التى بَذَلَها لإيقاظ الشُّعورِ العام فى إنجلترا لِتَحْرير هؤلاءِ العبيدِ المساكِينِ ، وبَدَأَ الشُّعورُ فى إنجلترا يَتَحَوَّلُ نحوَ تحريرِ العبيد . ففى سنة ١٨٠٥ م حَصلَت بريطانيا على مُسْتَعمَراتٍ جَديدَةٍ من حُروب نابليون ، فَحَرَّمَت فى تلك المُسْتعمرات الجديدة الاتجارَ بالعبيد . وفى سنة ١٨٠٦ وُضِعَ قانون يُحَرِّمُ على البريطانيين بَيْعَ العبيدِ أو شِرَاءَهم فى أىِّ مكان

من الأَمْكنَةِ ما عدا المُسْتعمَرات البريطانية الأُولى . وفى سنة ١٨٠٧ أُلْغِيَتْ تِجارةُ العبيد كُلِّيَّةً ، وحُرِّمَتْ هذه التجارَةُ كُلَّ التَّحْريم .

ولكن « وِلْبَرفُورس » لم يَقْتَنِعْ بتلك النَّتيجةِ ؛ فإن هذا القانونَ قد حَرَّمَ شِراءَ رجالٍ أو نساءٍ أو أطفال جُدُد وبَيْعَهم فى المستقبل ليكونوا عَبيدًا ، ولكنه لم يُحَرِّرْ هؤلاءِ الذين كانوا عبيدًا بالفعل واشْتُروا أو بِيعوا فى الماضى ، فهؤُلاءِ ما زالوا مُسْتعْبَدين ، وَما زَالَت الأَغْلالُ فى أَعناقهم . لم يَقْنَعْ ذلك الرجلُ بتلكَ النتيجةِ . وما زَال يُنَادى بتَحريرِ العبيد الذين حُكِمَ عليهم بالعُبوديَّة فى الماضى ، واسْتَمَرَّ يُبَيِّنُ لإنجلترا كيف يُعَامَلُ هؤلاءِ العبيد ، ولم يُنْزل تلك الصورةَ التى صَوَّرَها للرِّقِّ والعُبوديَّةِ ، وقد مكث نحوَ عشرينَ سنةً ، وهو يُنادى بتحريرِ العبيدِ فى جَميع المُسْتعمراتِ قديمِها وحديثِها ، وأَخَذَ ينادى سِتَّ عَشْرَةَ سنةً أُخرَى

بإعْطاءِ الحرِّيَّةِ لِكُل عبدٍ فى استعمراتِ البريطانية ، وأخيرًا وفى الوقتِ الذى بَدا فيه الضَّعفُ على « وِلْبَرْفُورْس » وبَدا عَليهِ كبَرُ السِّنِّ رفَعت بريطانيا يَدَها ، لِتَقْضِىَ على سَلاسل الاسْتِرْقاقِ ، وأَمَرَتْ بتحريرِ العبيد جميعاً فى كلِّ ممتلَكاتِها ، وتمَّ ذلك قبل وفاته .

عَظَمَةُ هٰذَا الرجُل :

لقد عاش « وِلْبَرْفورْس » ليرَى أَثَرَ انْتِصارِه وانتصارِ مَبْدئه فى حياته ، فقد وُلِدَ ثَرِيًّا من أَكْبَرِ لأَثْرِياءِ ، وتربَّى تربيةَ الأَشْرافِ . وكان فى اسْتِطاعَته أَن يكونَ فى أَكْبَرِ المراكزِ ومن أكبر رِجالِ السِّياسَة ؛ ولكنَّه ضَحَّى بثرْوَتِه ومَرْكَزه ومُسْتقْبَلِه ووقتِه وصِحَّتِه وقُوَّته فى سبيل ذلك المَبْدَإِ الإِنسانى ، مَبْدإِ تحْرِير العبيدِ ؛ لأنه كان يَعْتَقِدُ أَنَّ لدُّنْيا فانِيةٌ ، وأَن المالَ والثروةَ والمراكزَ والقوَّةَ كلَّها فانيَة ، وليست بِخالِدَة ، ولكن العَمَلَ العظِيم الخالِدَ هو التَّفكيرُ فى الإِنسان ،

وفى الناحية الإنسانيَّةِ ، وفى الحقِّ والعدالة . وقد حدَث ذاتَ مرة أن أحَدَ أبنائِه طَلَب منه أن يَشْتَرِىَ للأُسْرَةِ بَيْتاً يَقْرُبُ من بُحَيْرَة «جراسمير»[1] الجميلة ، فأجابه أبوه : «يَجبُ أن تَتَذَكرَ يا بُنى أننا لم نُرْسَلْ إلى هذا العالمِ للإعجابِ بالمناظِرِ الجميلةِ والتَّمتُّع بمُتَعِ الحياة فقط ، فهناك أشياءُ أجملُ من تلك المناظِرِ وألذُّ مِن مُتَعِ الحياةِ ، تلك هى التَّفْكِيرُ فى بنى الإنسانِ . ويجب أن نُحاكىَ هؤلاءِ العظماءَ الذين أتَوْا إلى هذا العالَمِ ليَخْدُمُوا غيرَهم ، لا لِيَخْدُموا أنْفُسَهُم . وإذا احْتجْنا إلى الرّاحَة من الأعمال الشَّاقة بين حين وآخر جازَ لَنا أن نَسْمَحَ لِأَنْفُسِنا بالتَّمَتُّعِ برُؤْيَة تلك المناظِرِ لا لمجَرَّدِ التمتع ، بل لنَتَمكَّنَ من العَمَل لإتْمامِ ما علينا من وَاجبَاتٍ نحوَ الفُقَرَاءِ من بنِى الإنسانيةِ . »

---

(١) The Lake of Grasmere

هكذا كانَ الرُّوحُ المُسَيْطِرُ على حَياةِ هذا الرجل العظيمِ ، حياته المملوءة بالتَّضْحِيَة ، التَّضْحِيَة فى سبيل غَيْره ، فى البَيْت وفى السياسة ، وفى الحياةِ وفى العَمَل . وكانتْ حَياتُه كلُّها نقيَّةً باهرةً مملوءةً بالإخْلاص والطَّهارة والاسْتِقامَة والتَّضْحِيَة ، ولقدْ قال عنه « رُوبَرْت [1] هُول » : « إنَّه رَجُلٌ صَغيرُ الجسم ، قَبيحُ المَنْظَر ، ولكن انظر إلى وَجْهه ، اسمَعْه وهو يَتكلَّم ؛ فإنك تَنْسَى كُلَّ شىءٍ ؛ لأنَّهُ المَثَلُ الأَعْلى للإنسانيَّة ، فى نَظراتِه ، وفى أقوالِه وأعْمالِه » .

لقد وُلِدَ ذلك الرجلَ غنيًّا ثَريًّا . ولكنه تُوُفِّىَ فقيرًا ، مضَحِّياً بثرْوَتِه وثرْوَةِ أَوْلادِه منْ بعْدِه ، فثروَتُه كلُّها قدْ ذهَبتْ . وكلها أُنْفِقَتْ على غيْرِه من بنى الإنسان . أُنْفِقَتْ على الفُقَراءِ والمَرْضَى والعَبيد وأَبناءِ السبيل ، والمَطْرُودين والمُشَرَّدين . وكان

(١) Rabert Hall

هؤلاء جميعاً يعلمون حقَّ العِلْم أنهُ صديقٌ لهمُ ، صَديقٌ لمنْ لا صَديقَ له ، ومُعينٌ لمنْ لا مُعينَ له . كان يَتصدَّق سِرًّا ، ويُحْسِنُ سِرًّا . وعنْدَ وفاتِه حَزِنَتْ عليهِ الإمبراطوريةُ الإنجليزيةُ العَجوزُ حُزْناً شَديدًا ؛ فقدْ تَعِب فى حَياتِه فى سبيلِ الدِّفاع عن الإنسانية .

ولقد دُفِنَ « وِلْبَرْفُورْس » فى مقبَرَةِ « وِسْتمنِسْتر »[1] حيث يُدْفَن الأَبْطال والعُظَمَاءُ ، والأُدَباءُ والعُلماءُ . وسيُذْكَرُ دائماً بين رِجال التاريخ على أنه فرْدٌ انتصَرَ على شعبه ، وقام بتحرير العبيد ؛ وحقق المثل الأَعلى ، وانْتَصَرَ للْحَقِّ والعَدالة انتصارًا باهرًا ، ووَضَعَ أُسُسَ الحريةِ . فهوَ بِحَقٍّ يُعَدُّ الواضِعَ للْحَجر الأَساسىِّ فى تحرير العبيدِ .

---

(١) Westminster Abby

أسئلة فى القصة :

(١) ما الفكرة الإنسانية التى أخذ « وليم ولبرفورس » يعمل على تحقيقها ؟

(٢) ما الاعتقاد الذى كان يدين به « وليم ولبرفورس » والذى من أجله طالب بتحرير العبيد ؟

(٣) من كان يعارض فكرة تحرير العبيد فى إنجلترا ؟ ومن كان يؤيد هذه الفكرة ويعضد « وليم ولبرفورس » ؟

(٤) ماذا كان يقصد « وليم ولبرفوريس » من دعوة بعض العظماء لزيارة سفينة محملة بالعبيد ؟

(٥) وماذا كانت نتيجة هذه الزيارة ؟

(٦) فيم أنفق « وليم ولبرفورس » ثروته الكبيرة ؟

(٧) ما أولى النتائج التى برهنت على تحول فكرة الشعب البريطانى نحو تأييد فكرة تحرير العبيد ؟

(٨) متى ألغيت تجارة العبيد ؟

(٩) ما الذى كان يسعى إليه « وليم ولبرفورس » بعد صدور القانون الخاص بتحريم تجارة العبيد ؟

(١٠) ما الدرس الذى ألقاه على ابنه حين طلب منه شراء بيت للأسرة فى بقعة غنية بالمناظر الجميلة ؟

(١١) لماذا حزنت الإمبراطورية البريطانية على وفاة « وليم ولبرفورس » ؟